الغزالى وعلم النفس

الأستاذ حمدى الحسينى

الأمراض النفسية

— ٨ —

فى الإنسان قوة اختلف علماء النفس فى تسميتها ؛ فبعضهم يسميها قوة الحياة أو القوة الدافعة أو إرادة القوة أو اللبيد ، وهذه القوة على كل حال تدفع الإنسان إلى الاحتفاظ بحياته وتحفزه إلى أن يعنى بأركان الحياة من الغذاء والسلامة وتخليد النوع. وفى الأزمنة الغابرة كان سهلا على الإنسان أن يحصل على مطالبه الضرورية المحدودة كما تقتضيه غرائزه وميوله . أما بعد أن تقدمت الحضارة وأصبح المجتمع يقضى على الإنسان بالخضوع لآداب وقوانين وعادات وتقاليد كثيرة لم يعد الإنسان قادراً على أن يطلق الحرية لغرائزه ورغباته وميوله وأمانيه .

بل اضطر أن يقمع كثيراً منها ويكبتها فى قرارة نفسه كلما حاولت الظهور بمظهر لا يرتضيه المجتمع أو يضر بحسن مركزه أو سلامته فيه ، وبذلك قام فى النفوس صراع شديد بين ما يتطلبه المجتمع وبين ما يتطلبه الفرد . إلا أن كل رغبة تكبت وكل غريزة تخمد لا تموت بل تنزل إلى قرارة النفس وتنحدر إلى أعماقها المظلمة . وتبقى هناك حية عاملة فى الخفاء تحرك المرء وتدفعه فتوجه سلوكه أو تحدث له من العلل الشىء الكثير على غير علم منه ببواعث هذا السلوك أو هذه العلل. وقد تحاول هذه الدوافع أن

والعسل معقم ومضاد للفساد لأن أى ميكروب لا يستطيع أن يعيش فيه طويلا إذ أن درجة تركيز العسل تجذب الماء من أجسام الجراثيم فتبيدها .

وقد يسأل سائل لماذا لا يكون فى الفواكه التى تشبه العسل فى طعمها ، ما فى العسل من الفائدة؟ فنقول إن السكر الذى بها هو سكر القصب أو أنواع أخرى ليس لها ما للجلوكوز من مميزات علاجية ؛ كما أن الفواكه لا تحتوى من الجلوكوز إلا على نسبة ضئيلة لا تغنى شيئا .

ولا يفوتنى هنا أن أنوه بسائل آخر يخرج من بطون النحل من مؤخرة الجسم عن طريق آلة اللسع وهو سم النحل ، جعل فيه شفاء لبعض الأمراض ، إذ قد لسع النحل بطريق المصادفة مريضاً بالروماتيزم بجوار مفصله المريض وكان عجباً أنه شفى بعد اللسع ، ذلك حدا ببعض العاملين إلى إجراء أمثال هذه التجارب على مرضى الروماتيزم واللمباجو (روماتيزم فى الجزء القطنى من الظهر) والسياتيكا (عرق النسا) .

ثم هناك الشمع الذى تفرزه النحلة من غدة خاصة بين حلقات بطنها ، فيخرج أولا كصفائح رقيقة صلبة تتلقفها النحلة فى فمها وتمضغها فتلين من صلابتها ويسهل بذلك تشكيلها فى صنع الحجرات الصغيرة السداسية ذات الشكل الهندسى الرائع .

وقد استعمل الشمع قديما فى صناعة شموع الإضاءة وحديثا فى الطب كأساس فى صنع المراهم والدهانات المرطبة (الكريم).

وأخيراً وليس آخراً جرب الدكتور الأمريكى (أيكارت) علاج لسعة النحل بسمها بالعسل فهدأ الورم وسكن الألم .

سبحانك اللهم ، ألهمت مملكة النحل فدبرت ملكها ونظمت جندها ، ألبستها الخيرات وأطعمتها الزهرات وسخرتها للناس بالعسل طاهيات ، فهى إن دوت روت ، وإن طعمت أطعمت وإن لسعت نفعت .

فهل رأيت النحل عن أمانة مقصره
ما افترضت من بقلة أو استعانت زهره
أدت إلى الناس به سكرة بسكره

سبحانك ربى هذا كتابك شفاء نافع ودواء ناجع ولكن ، ما أقل المستشفين به ، وهو علم ونور يقف أمامه الجامد المفكر وقفة الأخيذ الحيران . وإلا فهل كان عند نزول القرآن منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا يعرف ما فى عسل النحل من مركبات وهى لم تعرف إلا حديثا ، أم كان يعرف الجلوكوز وأنه سيستعمل يوماً ، دواء للأدواء ولكنه علم من هو فوق كل ذى علم عليم .

وإلى فرصة أخرى لنوالى أحاديثنا عن الطب والإسلام تذكرة وعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

الدكتور عامر الغوابى
طبيب أول مستشفى رعاية الطفل بالجيزة

لهو الحديث . وكان عباس ، وهو اسم ذلك الرجل — يتنقل بالجلوس من جد إلى هزل ، ومن غناء إلى عزف ، فيعجب ويطرب ، ولكن أمتع ما فيه كان الدعابة والنكتة : كانت نكته على طريقة (اشمعنى ؟) وكانت دعاباته من طريق التورية . وكان يركب بهاتين الطريقتين أو باحداهما ثلاثة من خاطاته وخلصائه : فقيها أعمى وطحاناً أعشى وفلاحاً أعور ، فلا يدرى أحد منهم كيف يدفع عن نفسه . كان هؤلاء الثلاثة يبقون إذا انصرف السمار ، فيغلق الفلاح الباب ، ويوقد الطحان النار ، ويهيىء الفقيه الجوزة ، ويُعد عباس القرص ، ثم يتعاقبون الغابة نفسا بعد نفس . وكان عباس قد أخبرهم منذ اطمأن إليهم أن هذا هو الحشيش الذى يفتق ذهن الغبى ، وينطق لسان الأبكم ، ويرهف حس البليد ؛ وأنه هو الحشاش الذى تحفظ نكته ، وتروى حيله ، وتطلب فتاواه . فلم يخامرهم شك فى قوله ، لأنه هو نفسه الدليل على صدقه . فأقبلوا على الدخنة القذرة يأخذونها للشهيق والزفير ، ويتركونها للسعال والشخير ، حتى أصبحوا مدمنين لا يطيقون صبراً عن الحشيش ، ولا يستطيعون بعداً عن عباس . وكان لابد للحشاشين الجدد أن يساجلوا فى (القافية) الحشاش القديم . فنجح الأعمى كل النجاح ، ووفق الأعشى بعض التوفيق ، وأخفق الأعور غاية الاخفاق ؛ لأن غباء ذهنه كان أكثف من أن يلطف ، وغشاء حسه كان أسمك من أن يرق . ولكنه كان قوى الإيمان بالحشيش فلم يؤمن بالواقع . وأقبل المساء وغصت الحجرة كعادتها بالشبان والأحداث ، فلهوا بالحواديت ، ثم تساجلوا بالفوازير ، ثم تجاوبوا بالمواويل ، ثم أخذ عباس يرسل النكتة بعد النكتة فيقهقه لها الحضور ، ويرد عليه الفقيه والطحان فتنبلج لردها الصدور ، وتنصب النكت على الفلاح انصباباً فيحاول أن يردها عن نفسه فيقفر فاه ، ويرعش رأسه ، ويهز يده ، ويحاول أن ينطق فتنشب فى حلقه الحروف ولا تخرج ، ويتردد فى صدره الصوت ولا ينطلق ، فيسخر منه الجلوس ويتناولونه بالعبث المؤلم فلا يسعه إلا الانصراف . وفى أثناء الطريق تواردت على خاطره شبهات فى قدرة الحشيش على حل العقد من اللسان ، ولكنه دفعها بما فعل فى الفقيه والطحان ، وعزم أن يضاعف القدار . فلما رجع إلى (غرزة) العباس بعد انصراف الناس كر الشد ، وعمق النفس ، وطول النوبة . وفى آخر الليل استعمى رفاقه واختلس قطعة كبيرة من الحشيش ، وظل فى داره النهار كله يقتطع منها القطعة على قدر حبة الفول ، ويذيبها فى فنجان من القهوة السادة ثم يجرعها . فعل ذلك مرتين ثم أراد أن يفعل الثالثة فلم يستطع . لقد أخذته حال من الخدر الشديد فصار يأكل ولا يشبع ، ويشرب ولا يرتوى ، ويتكلم ولا يعى ، ويضحك ولا يكف . وكلما رأى أحداً من أهله أو من جيرته قال له بلهجة متلكئة متقطعة متكافئة : إنت عشى — اشمعنى ؟ زى الحمار ! أه أه آه ! أنت تاكل ، اشمعنى ؟ زى الفول ! أه أه آه ! فينظر إليه السامع مشدوهاً ولا يضحك ، فيرفع (المسطول) الصوت ، ويعيد النكتة ، ويردد الضحكة ، ولكن المشدوه يظل واجماً لا ينطق . وفى المساء تحامل الأعور على نفسه حتى بلغ مجلس اللهو ، ولم يكد يدخله حتى قال بلهجة المنزل المسطول : أنت يا عباس ! فأجابه عباس مبتهجاً : اشمعنى ؟ فقال له : أعمى ! أه أه آه ! وانتظر هو ماذا يقول الناس ، وانتظر الناس ماذا يقول عباس ، فاذا الناس يصيخون ، وإذا عباس يصيح ! أهذه نكتة يا نصف أعمى ؟ ثم انفجر بالنكات الساخرة فى وجه الحشاش المخدوع حتى ألجأه إلى الخروج فخرج خزيان يهذى . وعاد إلى داره وهو يشعر أنه الليلة خير منه البارحة ، لأنه قال على كل حال شيئاً . وكان قد عرف من عباس أين يباع الحشيش فاشترى منه مقداراً كبيراً وأخذ يذيب منه فى القهوة ويشرب . وفى كل ساعة من ساعات النهار والليل كان يرتقب وحى الحشيش فلا ينزل ، وينتظر ذكاء الحشاش فلا يقبل ، فيضاعف القدار ويزيد الوجبات ، حتى هزل جسمه ، وشحب لونه ، واختل هضمه ، واعتل صدره ، واضطرب عصبه ، وساء خلقه ، واعتراه الهمود ، ولزمه الوسواس ، فصار لا يعمل فى غيط ولا بيت ، ولا يفكر فى زوج ولا ولد ، وإنما كان أكثر يومه نائماً ، فاذا أفاق هذى بالنكت الباردة والدعابات السخيفة . وفى غشية من غشيات الخدر باح بالسر المكنون فقال وهو يضرب بيده على صدره : أنا الحشاش الأصلى لأننى أشرب الحشيش بالفنجان ، وعباس وصاحباه حشاشون مقلدون لأنهم يكتفون منه بالدخان !

وتسامع الناس بالسر المفضوح فتحاموا الأعور حتى نفق من الخيال ، وقاطعوا الأعمى والأعشى والأعمش حتى هلكوا بالسلال !

حمدى الزيات

فى مرض الخير والتمييز فى هذا غامض إلى أن يقول . وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع ومكايد الشيطان . ولقد الآن هذا التشبيه الجميل الذى وضعه الغزالى للعقل الواعى بالنسبة للخواطر اللاشعورية أو رغبات العقل الباطن يقول — العقل مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولى عليه ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدرى أبوابه . فحراسة العقل عن وسواس الشيطان واجبة .

أما الأبواب التى يذكرها الغزالى أنها مداخل الشيطان إلى العقل فهى الغرائز ، يقول . من أبواب الشيطان العظيمة إلى العقل الغضب والهم والطمع والحقد .

ويعجبنا تنبيه الغزالى إلى تأثير كبت الرغبات الغريزية فى اللاشعور كبتاً يحدث مرضاً عصبيا أو تسامياً ، ويعجبنا أيضاً من الغزالى هذا السؤال الذى طرحه على نفسه ليجيب عليه وهو هل يتصور أن ينقطع الوسواس بالكلية عند الذكر أم لا .

لاشك أن الغزالى عرف جيداً أن الرغبات الغريزية المكبوتة فى اللاشعور لا تنقطع عن العمل بل تظل تعمل فى صميم النفس وقرارة العقل الباطن أعمالا تسبب أمراضاً نفسية وعصبية منها الوسواس، أو تسبب تساميا تنفس به النفس ألم الكبت ومضاضة الحرمان . ويجمل بنا أن نورد هنا ما يقوله الغزالى جواباً عن هذا السؤال يقول .

إن العلماء المراقبين للعقول من صفاتها وعجائبها اختلفوا فى مسألة انقطاع الوسوسة بالذكر؛ فقالت فرقة: الوسوسة تنقطع، وقالت أخرى : لا ينعدم أصل الوسوسة ولكن تجرى فى العقل ولا يكون لها أثر لأن العقل إذا صار مستوعباً للذكر كان محجوباً عن التأثر بالوسوسة ، وقالت فرقة لا تسقط الوسوسة ولا أثرها ولكن تسقط غلبتها على العقل . والوسواس أصناف فقد يكون بتلبيس الباطل ثوب الحق ، وقد يكون بتحريك الشهوات ، وقد يكون بمجرد الخواطر .

ومن هذا تبين لنا جليا أن الغزالى يعرف جيداً أن الوسوسة مرض نفسى لا يزول بذلك النوع من العلاج وهو الذكر ، وكل ما يفعله الذكر فى هذه المشكلة النفسية أو الوسوسة هو تخفيف وقعها وتقليل شرها . ونحن نرى الغزالى فى هذه النقطة محللا نفسيا أكثر منه واعظاً دينيا أو عالماً أخلاقيا .

وكأن الغزالى قد عز عليه أن يعرف أسرار النفس البشرية ولا يعرف العقد النفسية أو المركبات العاطفية فقد وضع يده على هذه العقد والمركبات وضع الخبير العارف قال — إن القلب تكتنفه الصفات التى ذكرناها وتنصب إليه الآثار والأحوال من الأبواب التى وصفناها فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب .

فإذا أصابه شىء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فتتغير وضعيته، فان نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه، وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره ، وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره . فتارة يكون متنازعاً بين ملكين وتارة بين شيطانين وتارة بين ملك وشيطان . وأى قول أبلغ فى وصف العقد النفسية والمركبات العاطفية من هذا القول وسنبسط هذا الموضوع فى المقالات القادمة إن شاء الله

حمدى الحسينى

مجلس مديرية الفؤادية

يعيد اعلان توريد الأدوات المدرسية اللازمة لمدارسه وقد حدد آخر ميعاد لقبول العطاءات ظهر يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٩٥٠ ويمكن الحصول على الشروط المذكورة مقابل ٥٠ مليم يضاف إليه ٤٠ مليم أجرة بريد وتقدم الطلبات على عرنجال دمنه

٦٧٠٢